﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٤٧﴾ [النّحل: 47]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ الأخذِ حالَ الخوفِ، بعدَ ذِكْرِهِ حالَ الأمنِ

بعد أن توالتِ الآياتُ في تهديد المشركين ووعيدِهم، إنْ هُم لم يرتدعوا بالخَسْف أوَّلًا، أو بأذيّتِهم بالعذاب مِن حيثُ لا يشعرون ثانيًا، أو بالأخذ مِنَ الله تعالى في حال تَقَلُّبِهم في معايشهم ثالثًا، أُتبِعَ ذلك بذِكْر لونٍ آخَر مِن ألوان هذا التَّهديد، بأن يأخذَهمُ اللّهُ على تَخَوُّف، ثُمَّ بتذييل كلِّ ذلك بذِكْر رحمته ورأفته ﷻ بهم، إذ لم يُعاجِلْهُم بالعقوبة، فقال تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، فلمّا ذَكَر الأخذَ المُتَقَدِّمَ حالةَ الأمن، انعطفت حالةُ الخوفِ عليها[1]، فذكر أنّه "يهلكُهم بنقصِ أموالهم، أو بنقص أنفسِهم رويدًا، وهم في كلّ لحظة في عذاب مِنَ الخوف منه، والتَّرقب لوقوعه، فلا تتمادَوا أيُّها المشركون، وتغترّوا بتأخير عقوبتكم"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَخَوُّفٖ﴾: أصلُ الخَوف: الذُّعر والفَزَع، وخافَه يَخافُه خَوْفًا وخِيْفةً، كأنَّ الَّذي يخاف منخوبُ الفُؤادِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ [إبراهيم: 43][3]، والتَّخْويفُ والإخافَةُ: الإفْزاعُ والإرْهابُ[4]، وضِدُّه: الأمنُ، وأصْلُه: النَّقْصُ، يُقال: تَخَوَّفْناهُم، أي: تَنَقّصْناهُم، وناقَةٌ خَوْفاءُ، أي: ناقِصَةٌ بِها داءٌ[5]، والمقصود بالتَّخوُّف في الآية مَعْنَيانِ: إمّا أنْ يَكونَ المعنى: يأخُذُهُم وهم في حالةِ تَوقُّعِ نُزولِ

(1) الجرجانيّ، درج الدُّرر: 2/ 186.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/ 317.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خوف - خيف).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).
(5) الكَفويّ، الكلّيّات، ص: 428.

العذابِ؛ بأنْ يُريهُم مُقدّماته، كالرَّعْدِ قَبْلَ الصَّواعِقِ، وإمّا أنْ يَكونَ المعنى: يأخُذُهُم وهُم في حالةِ تَنَقُّصٍ مِن قَبْلِ أنْ يَتَنَقَّصَهُم قَبْلَ الأخْذِ، بأنْ يُكْثِرَ فِيهِمُ المَوَتانَ والفَقْرَ والقَحْط[1].

2) ﴿لَرَءُوفٌ﴾: أصلُ (رَأفَ): يَدُلُّ على الرِّقة والرَّحمة، والرَّأفَةُ: شِدَّة الرَّحمة وعِظَمُها، يقال: رأفَ به، إذا رَحِمَه رحمةً كبيرة، فهو رائف، وتراءفوا، أي: تراحموا، والرَّؤوف: شديدُ الرَّحمةِ بالغير، وقيل: الرَّأفةُ: دَفْعُ السّوءِ عن الشَّخص، والرَّحمةُ: دَفْعُ السّوءِ وجَلْبُ الخيرِ، ومِن معانيها أيضًا: العطفُ[2]، والمقصود هُنا في الآية: المُبالغَةُ في الاتِّصاف بالرَّأفَة.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تكملةُ بعضِ الأحوالِ الّتي يقع فيها عذابُ اللهِ، بالأخذ على تخوّف، معَ رحمتِه بالإمهال

هدّدَهمُ اللّه تعالى بنوعٍ جديد مِنَ العذاب، فقد يُهلِكَهم بنَقصٍ مِن أطرافِهم ونَواحيهم، شيئًا بعد شَيءٍ، حتّى يُهلِكَهم جميعَهم، فإنَّ ربَّكم لا يُعاجِلُ الكافرينَ والعاصِينَ بالعُقوبةِ؛ لأنَّه رؤوفٌ رَحيمٌ بعبادِه، يَرزُقُهم ويُعافيهم، ويُمهِلُهم ليتوبوا[3]، ويكون مَفادُ السّياق: "أوَأمِنوا أن يأخذَهم اللّهُ بعدَ أن يُثير في نفوسهم الخوفَ والرّعبَ، بأنّه تعالى سيأخذُهم بالعذاب، فإنّ مثلَ هذا الأخذِ يكون أبلغَ وأشدّ؛ لأنّ أثر ما يحصل للإنسان، وهو خائفٌ منه ومتوقّعٌ له، أشدُّ وأبلغُ، ولكنّ اللّه رؤوفٌ رحيمٌ بهم، إذ لم يعاجلهم بالعقوبة"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ تكرار الحرف ﴿أَوْ﴾:

عرضُ أنواعٍ مِن عذاب أهلِ السّوء، بيانٌ لكمال القُدرة الإلهيّة في كلّ حال

في تكرار ﴿أَوْ﴾ في الآيات بيانٌ لبعض الأحوال الّتي يقع فيها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 167.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رأف).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 238، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 575، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 441.
(4) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1949.

عذابُ اللّه بأهل السّوء والشِّقاق، فهم إمّا أن يُؤْخَذوا على حين غَفْلةٍ، وإمّا أن يلقاهم العذابُ وهم في يقظة، حيثُ يتقلّبون في وجوه الأرض، أو يَحِلَّ بهم البلاءُ وهم على تخوُّف، أي: على تَوَقُّعٍ للبلاء، بين يدَي إرهاصاتٍ تُهدِّد به وتُنذر بوقوعه، فعذابُ اللّه يقع حيثُ يشاءُ اللّه، ومتى يشاء، وما هو مِنَ الظّالمين ببعيد[1].

ففي قُدرة اللّه أن ينتقم مِنَ الظّالم على أيّ حال؛ سواء أكان نائمًا هادئًا، أو متحرِّكًا مُسافرًا مُتَقلِّبًا، وسواء أكان خائفًا مِنَ العذاب مُتَرقِّبًا له، أو آمنًا وادِعًا، لا يتوقَّع العذابَ ولا ينتظره[2]، فالعبدُ في جميع أحواله عُرضةٌ لسهام التَّقدير، فينبغي أن يستشعر الخوفَ في كُلِّ نَفَس مِنَ الإصابة بها، وألّا يأمنَ مَكْرَ اللّه في أيّ وقتٍ[3].

بديع المقابلة بين المعطوفات، مِن أنواع العذاب الأربعة:

تصويرُ إحاطةِ أنـواع الـعـذاب بمستحقّيها في سائر أحوالهم

اعتُبِر التّقابلُ في الأنواع الأربعة مِنَ العذاب، على أنَّ المُراد بخسف الأرض بهم إهلاكُهم مِن تحتهم، وبإتيان العذابِ مِن حيثُ لا يشعرون بإهلاكهم مِن فوقهم، وحيثُ قوبِلا بإهلاكهم في تقلُّبهم وأسفارهم، كان المعتبر فيهما سكونَهم في مساكنهم وأوطانهم، والمقابلة بين أخذهم على تخوّف والأخذِ بغتة المُشعرِ به ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ظاهرة، فلمّا ذَكر الأخذَ المُتَقدِّم حالةَ الأمن، انعطفت حالةُ الخوفِ عليها[4].

واعتُبِر عدمُ الشّعورِ في الأخذ في التّقلّب والخسف، لقرينة الأخذ على تخوّف، على ذلك المعنى، وحُمِلَ سائرُها على عذاب الاستئصال دون الأخذ على تخوّف، على المعنى الثّاني.

ومُجمَل القولِ في ذلك: أنَّه اعتُبر في كلٍّ اثنين مِنَ الأربعة مَنْعُ

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 303.
(2) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 14/ 2663.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 300.
(4) الجرجانيّ، درج الدُّرر: 2/ 186.

الجمع، لكن بعد أن يُراد بالعامّ منهما المُقابلة ما عدا الخاصّ، سواء كان بينَ الاثنين عمومٌ مِن وجه، أو مُطْلَقًا[1].

بديعُ ائتلافِ اللَّفظِ والمعنى:

بيان أنّ اتّساقَ التّراكيبِ مع المعاني مِن روائع النّسجِ القرآنيّ

اشتملت هاتان الآيتان الكريمتان: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ على لون بديعيٍّ جليل، يُسمَّى في علم البديع بائتلاف اللَّفظ مع المعنى، وهو سائد في كلِّ القرآن الكريم، وهو مَجيء الألفاظِ موافقةً للمعاني، وفي هاتين الآيتين، ترى مِن ذلك عجبًا، فلمّا كان التَّقلّبُ والتّخوّفُ مَظِنَّةَ الهَربِ، عبَّر النَّظم الكريم فيهما بالأخْذ المُؤْذِن بالعذاب الشَّديد، ولمّا كان العذاب واقعًا في حالة سكون، لأنَّهم لا يشعرون من أين يأتيهم، عبَّر فيه بالإتيان[2].

دلالة حرف الجَرّ ﴿عَلَىٰ﴾:

الدّلالة على تَمَكُّنِ عذابِ الله مِنَ الكُفّار، بحيث لا يتاحُ منه فرار

التّعبيرُ بحرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾، يدلّ على تمكّن عذابِ اللّهِ مِنَ الكفّار، فإذا وقع بهم، فإنّهم لن يفلتوا منه، بل هو محيط بهم، أيّما إحاطةٍ، ومحلُّ المجرورِ حالٌ مِن ضمير النَّصب في ﴿يَأْخُذَهُمْ﴾، وهو كقولهم: (أخذه على غرّة)[3].

دلالةُ حروف الجرّ:

مُناسبة (في) للتقلّب والظَّرفيَّة، ومناسبة (على) لمُصاحبة العذاب لهم

جيء بـ﴿فِي﴾ مع التَّقلّب، وبـ ﴿عَلَىٰ﴾ مع التَّخوّف؛ لأنَّ في التَّقلُّب حركتين، فكان الشَّخصُ المُتَقَلِّبُ بينهما، ولا كذلك التَّخوف، ولمّا كان التّقلّبُ شاغلًا الإنسانَ بسائر جوارحه، حتَّى كأنَّه محيطٌ به وهو مظروفٌ فيه، جيء بـ﴿فِي﴾ معه، والتَّخوّف - أي: المخافة - إنَّما يقوم بعضو مِن أعضائه فقط، وهو القلبُ المحيط به بَدَنُ الإنسان، فلذا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 390.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 117، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 391.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 167.

جيء بـ﴿عَلَىٰ﴾ معه، كما أنَّ (على) بمعنى (مع)، كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: 177]، أي: يأخذهم مُصاحبين لذلك، ولمّا كان التَّخوّف نفسُه نوعًا مِنَ العذاب، لما فيه مِن تألُّم القلبِ، ومشغوليَّةِ الذّهن، وكان الأخذُ مُشيرًا إلى نوعٍ آخر مِنَ العذاب أيضًا، جيءَ بـ﴿عَلَىٰ﴾ الّتي بمعنى (مع)؛ ليكونَ المعنى: يعذّبهم مع عذابهم، ولم يُعتَبر ذلك مع التَّقلُّب مُرادًا به الإقبالُ والإدبارُ، في الأسفار والمتاجر، وهذا مِن أسرار كتاب الله تعالى الّتي لا تُحصى[1].

بلاغة التّعبير بالمصدر ﴿تَخَوُّفٍ﴾:

بيانُ شدَّة الأخذِ وتفاوتِ وقعِه إيلامًا ووحشةً

التَّخوّفُ له معنيان؛ **المعنى الأوّل**: مِنَ الخوف، أي: يُصيب الكفّارَ الرّعبُ قبلَ إيقاع العذاب بهم، عن طريق إهلاك قومٍ قبلَهم، أو عن طريق مشاهدتِهم للصّواعق والزّلازل قبلَ وقوع العذاب، وهذا التّخوّفُ فيه عذابٌ وزيادة؛ لأنّ فيه زيادةَ رُعْبٍ وخَوفٍ، فيأخذهم الله تعالى في حال خوفهم، مِن أخْذه لهم، فإنّه يكون أبلغَ وأشدّ حالاتِ الأخذ، فإنَّ حُصول ما يُتَوقَّع معَ الخوفِ شديدٌ[2].

والمعنى الثّاني: وهو التَّنقُّص، أي: يُنقِصُ مِن أطرافهم ونواحيهم، شيئًا بعد شيء، حتّى يهلكَ جميعُهم، يقال: تخوّفَه الدّهرُ وتخوّنه: إذا نَقَصَه وأخذَ مالَه وحَشَمَه[3]، فيأخذهم العذابُ بشكل تدريجيّ، بأن يصيبهم المرضُ المُهْلِك، فيموتوا بشكل تدريجيّ، أو يصيبَهم القَحْطُ فيَهْلِكوا بشكل تدريجيّ[4].

وهذا التّنقُّصُ يتّجه به الوعيد على معنيين؛ أحدهما: أن يهلكَهم ويُخْرِجَ أرواحَهم على تَخَوُّف، أي: أفذاذًا، يتنقّصُهم بذلك الشّيء بعد الشّيء، ويُصَيّرُهم إلى ما أعدّ لهم مِنَ العذاب، وفي هذه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 391.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 575.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 80، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 212.
(4) ابن جُزيّ، التّسهيل: 1/ 427، والقدوميّ، التّفسير البياني، ص: 95.

الرُّتبة الثّالثة مِنَ الوعيد رأفةٌ ورحمةٌ وإمهالٌ؛ ليتوبَ التّائبُ، ويرجعَ الرّاجعُ، والثّاني: أن يأخذَ بالعذاب طائفةً أو قريةً، ويتركَ أخرى، ثمّ كذلك حتّى يهلكَ الكلُّ[1]، ويكون هذا أشدَّ عليهم إيلامًا ووحشة[2].

فائدة الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ﴾:

تفريع الجملة على الجمل الماضيَّة، تفريعُ العِلَّةِ على المعلَّل

لمّا كان التَّقدير: (لم يأمنوا ذلك في نفس الأمر)، ولكنّ جَهْلَهم باللّه - لطول أناته وحِلْمِه - غَرَّهم، فسبَّب عنه قوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ﴾، فتسبَّب عن إمهاله لهم في كُفرهم وطغيانهم - مع القدرة عليهم - العِلْمُ بأنّ تَرْكَه لمُعاجَلتهم ما هو إلّا لِرَأفته ورَحمته[3]، فتفريع: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ على الجمل الماضيَّة، تفريعُ العِلَّةِ على المُعلَّل[4]، فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، يكون تعليلًا للأخْذ على تخوّفٍ، بناءً على أنّ المُراد به أخْذُهم على حُدوث حالاتٍ يُخاف منها؛ كالرّياح الشّديدة، والصّواعق والزّلازل، لا بغتة، فإنّ في ذلك امتدادَ وقتٍ ومُهْلةٍ، يمكن فيها التّلافي، فكأنّه قيل: أو يأخذَهم على تَخَوّفٍ ولا يفاجئَهم، لأنّه سبحانَه رؤوفٌ رحيم، وذلك أنسبُ برأفته ورحمته ﷻ، وجوِّز أن يكون تعليلًا لذلك على المعنى الأخير، فإنّ في تنقُّصهم شيئًا بعد شيء دونَ أخذِهم دُفعةً إمهالًا في الجُملة، وهو مُطلقًا مِن آثار الرّحمة، وقيل: هو تعليل لما يُفهم مِنَ الآية، مِن أنّه سبحانَه قادرٌ على إهلاكهم بأيّ وجهٍ كان، لكنّه تعالى لم يفعل[5].

دلالةُ حرفِ التَّأكيد (إنَّ):

تعليلُ وتأكيدُ ما أفادته الفاءُ، في موقعها مِنَ الجملة

حرف (إنَّ) هُنا مفيدٌ للتَّعليل، ومؤكِّدٌ لما أفادته الفاءُ، والتَّعليل هُنا لما فُهِمَ مِن مجموع المذكورات في الآية، مِن أنَّه تعالى قادرٌ

(1) الثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/ 425.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 90.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 171.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 167.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 391.

على تعجيل هلاكهم، وأنَّه أمهلَهم، حتَّى نَسوا بأسَ اللهِ، فصاروا كالآمنين منه، بحيثُ يستفهم عنهم: أهُم آمنون مِن ذلك أم لا؟[1]، فهو تعليلٌ للأمن المُستفهَم عنه.

دلالةُ كافِ الخطاب في ﴿رَبَّكُمْ﴾:

فضلُ الله سبحانه على هذه الأمَّة، إذ عافاها ممّا ابتلى به الأممَ السّابقة

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، إشارةٌ إلى ما مَنَّ اللهُ به مِن فضلٍ على هذه الأمَّة، إذ عافاها ممّا ابتلى به الأممَ السّابقة، حين عجّل لها العذابَ، أمّا هذه الأمّةُ فقد أفسحَ الله ﷻ للفجّار مِن أهلها في الأجل، حتَّى تكون لهم إلى الله رجعةٌ حين يطول وقوفُهم مع رسوله الكريم، وبين يدَي ما معه من كلمات ربّه، وفي هذا مَزيدُ فضلٍ من الله سبحانه على نبيِّه، إذ لم يفجَعْه في قومه، ولم يُهلكْهُم بسبب خِلافهم عليه، ومَكْرهمُ السَّيِّئ به[2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّة في هذا المقام:

بيانُ آثارِ رحمته ﷻ، وتقدَّست بالعَظَمة والكمالِ أسماؤُه

جاء التَّعبير بـ ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ﴾، بدلَ (فإنَّ الله) أو ما في معناه؛ لأنَّ مِن معاني الرَّبِّ المدبِّرَ لأمر عباده، والرّاعيَ لشؤونهم، وفي إمهال الكُفّار وتأخيرِ إيقاعِ العذابِ بهم منتهى التَّدبيرِ لمصلحتهم، فالتَّعبيرُ بعنوان الرُّبوبيَّة مِن آثار رحمته جَلَّ شأنُه[3]، "وكأنّ في الآية لَوْنًا مِن ألوان رحمتِه سبحانَه بخَلْقه، وحِرْصه على نجاتهم؛ لأنّه يُنبِّههم إلى ما يمكن أن يَحْدُث لَهم، إذا أصرّوا على كفرهم، ويُبصِّرهم بعاقبة كفرهم، والتّبصِرةُ عِظَةٌ، والعِظَةُ رأفةٌ بهم ورحمة، حتّى لا ينالَهم هذا التّهديدُ، وهذا الوعيد"[4].

سرُّ التَّوكيد بـ (إنَّ) واللّام:

تأكيد الدّلالة على عظيم نعمةِ الله ذي الجلال، ومنَّتِه على عباده بالإمهال

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ﴾ تأكيدٌ بـ (إنَّ) وباللّام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 167.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 391، وعبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 303.
(3) القدوميّ، التّفسير البياني، ص: 95.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: (الخواطر): 19/ 7969.

﴿لَرَءُوفٌ﴾، وفي هذا دلالةٌ على عظيم هذه النِّعمة، بالإمهال مع استحقاق العذاب، وتركِ تعجيل العقوبة، فقد وقع في هذه الآية الكريمة أسلوبُ التَّأكيدِ الّذي يُمَكِّنُ الخبرَ في النّفس ويُقوِّيه، ويُزيل عنه الشُّكوكَ والشُّبهاتِ، وذلك باستعمال (إنَّ) ولامِ التَّوكيد، الّتي هي في صدر الجُملة، واستعمالِ الجملةِ الاسميَّة صيغَ المُبالغةِ في الصِّفتين الواقعتين في تذييل الآية الكريمة، وفي هذا التَّوكيد، وهذه المُبالغة، ما يبعثُ النَّفسَ على الإيمان والتَّصديق، والإذعانِ للّه ﷻ[1].

دلالةُ ذِكرِ الرَّأفة والرَّحمة، بعد ذكر أنواع العذاب:

الرَّأفةُ والرَّحمة مناسبةٌ للإمهال، وملائمةٌ لعدم المُعاجلةِ بالعقوبة

قولُه تعالى: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، حيثُ لا يُعاجلُكم بالعقوبة، ويحلُمُ عنكم مع استحقاقِكم لها، ولمّا كان تعالى قادرًا على هذه الأمور، ولم يُعاجلهم بها، ناسبَ وصْفُه بالرَّأفة والرَّحمة، بعد ذِكر العذاب[2].

نُكْتَةُ تقديمِ صفة (الرَّأفة) على (الرّحمة):

تقديمُ الأخصّ والأبلغِ مِنَ الوصفين، مِن فصيح البيان في آي القرآن

الرَّأفة: شِدَّة الرَّحمة، وقَدَّمَ هنا الرَّأفةَ على الرَّحمة؛ لأنَّها أخصُّ وأشدُّ مبالغةً، فالمعنى: أنَّه يرحمُهم أعلى الرَّحمة، بإسباغ جلائلِ النِّعم، ودَفعِ جلائلِ النِّقم، ويَرحمُهم أيضًا، بإسباغ دقائقِ النِّعم، ودَفعِ دقائقِ النِّقم، ولأنَّ الرَّأفةَ تكون في دَفعِ المَكروه، والرَّحمةَ تكون في إيصال الخير، فالمعنى: أنَّه إذا لم يأخذكم مع ما فيه، فإنَّما رأفَتُه تَقيكُم، ورَحْمَتُه تحميكُم[3]، فقُدِّمَتِ الرّأفةُ على الرّحمة؛ لأنّ السَّلامةَ تكونُ أوّلًا، ثمّ تكون الغنيمة[4].

الدَّلالةُ البلاغيَّة في ترتيب أنواع العذاب:

ذِكرُ العذابِ التَّدريجيّ؛ ليهتديَ المخاطبون المقصودون بالتَّهديد

العذابُ التَّدريجيّ في هذه الحالات، يكون لاحتمال أن تهتديَ

(1) السّيواسيّ، عيون التَّفاسير: 2/ 312.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 535.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 39.
(4) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 95.

هذه المجموعةُ، واللّه ﷻ لا يريد أن يعاملَ هؤلاء كالباقين: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ومِنَ المُلفِتِ للنَّظر في الآيات موردِ البحث: ذِكْرُها لأربعة أنواعٍ مِنَ العذاب الإلهيّ؛ الأوَّل: الخَسْف، الثّاني: العِقاب المُفاجئ الّذي يأتي الإنسانَ على حين غَرّة مِن أمره، الثّالث: العذابُ الّذي يأتي الإنسانَ وهو غارقٌ في جمع الأموال وتَقَلُّبِه في ذلك، الرّابع: العذابُ والعقاب التّدريجيُّ، والمُسَلَّم به أنَّ نوع العذاب يتناسب ونوعَ الذَّنبِ المُقْتَرَف، وإنْ وردت جميعُها بخصوص ﴿ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، لعِلْمنا أنّ أفعالَ اللّه لا تكون إلّا بحِكْمة وعَدْلٍ.

وقد اختصَّ النَّوعُ الأوَّلُ مِنَ العقاب بأولئك المُتآمِرين، الّذين هم في صَفِّ الجَبّارين والمُستكبرين، كقارونَ الّذي خَسفَ اللّه تعالى به الأرضَ، وجَعلَه عبرةً للنّاس، مع ما كان يتمتَّع به مِن قُدرة وثَروة.

أمّا النَّوع الثّاني: فيَخُصُّ المتآمِرين الغارقين بمَلَذّات معاشِهم وأهوائِهم، فيأتيهمُ العذابُ الإلهيُّ بغتةً وهم لا يشعرون.

والنَّوع الثّالث: يَخُصّ عبَدَةَ الدُّنيا، المَشغولين في دُنياهم ليلَ نهار، ليضيفوا ثروةً إلى ثروتهم، مهما كانت الوسيلة، حتّى وإنْ كانت بارتكاب الجرائم والجنايات، وصولًا إلى ما يطمحون إليه! فيعذّبُهمُ اللّه تعالى وهم على تلك الحالة.

وأمّا النوع الرّابع مِنَ العذاب: فيَخُصُّ الذين لم يَصِلوا في طُغيانهم ومَكرهم وذنوبِهم إلى حيثُ اللّارجعةُ، فيعذبُهم اللّه بالتَّخويف، أيْ: يُحَذّرُهم بإنزال العذابِ الأليم في أطرافهم، فإنِ استيقظوا فهو المَطلوب، وإلّا فسينزلُ العذابُ عليهم ويهلِكُهم؛ وعلى هذا، فإنَّ ذِكْرَ الرَّأفةِ والرَّحمةِ الإلَهيَّة، يرتبط بالنَّوع الرّابع مِنَ الّذين مَكَروا السَّيئات، الّذين لم يقطعوا كُلَّ علائقِهم معَ اللّه، ولم يُخرِّبوا جميعَ جُسورِ العَودة[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّأفةُ والرَّحمة:

الرّحمةُ والرّأفةُ كلمتان متقاربتان في المعنى، إلّا أنَّ بينَهما فروقًا لطيفة، فالرّأفةُ: رِقَّةٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 212، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 390، والشِّربينيّ، السراج المنير: 2/ 262.

الرّأفة رِقّةٌ تنشأ عند حدوث ضُرٍّ بالـمرؤوف به، والـرّحـمـةُ رِقّـةٌ تقتضي الإحسانَ لمَن يُرحَم

تنشأ عند حدوث ضُرٍّ بالمَرؤوف به، يُقال: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: 128]، والرّحمةُ: رِقّةٌ تقتضي الإحسانَ للمَرْحوم(1).

ويُفَرَّقُ بينَ الرَّأفة والرَّحمة أيضًا، بأنَّ الرَّأفة مُبالغةٌ في رحمةٍ خاصَّة، وهي دَفْعُ المكروهِ، وإزالةُ الضَّرَرِ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النّور: 2]، أي: لا تَرأفوا بهما، فترفعوا الجَلْدَ عنهما، وأمّا الرّحمةُ فإنَّها اسمٌ جامِعٌ، يدخل فيه ذلك المعنى، ويدخلُ فيه الإنعام(2).

والرّأفة أيضًا: هي أن يَدْفَعَ عنكَ المَضارَّ، والرَّحمةُ أن يوصِلَ إليك المَسارَّ.

فالرَّأفة مِن باب التَّخْلية، والرَّحمة مِن باب التَّزكية، والرَّأفةُ مبالغةٌ في رحمةٍ مخصوصة، فهي أشدُّ الرّحمةِ، وهي رفع المكروه، وإزالة الضُّر، فذِكْرُ الرَّحمةِ بعدَها في القرآن مُطَّردًا؛ لتكون أعمَّ وأشملَ(3).

فبينَهما عمومٌ وخصوصٌ مُطْلَق، فالرّأفةُ خاصّةٌ في دَفْعِ المكروهِ عنِ المرحوم، بينما الرَّحمةُ تشمل هذا المعنى وغيرَه.

(1) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 239.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/ 93.
(3) الكفويّ، الكُلّيّات، ص: 471.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»